الفتح والأرض في الأندلس

د. عبد العزيز الدوري
و
د.غيداء خزنة كاتبي
(أستاذ مشارك) بقسم التاريخ
الجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

كان فتح الأندلس، وتنظيم أمورها في الأساس شأن ولاة إفريقية. وكان الفتح في العقد الأخير للقرن الأول الهجري(٩٢-٩٥هـ/٧١١-٧١٤م).

وقد وضعت التنظيمات التي تخص معاملة الأراضي المفتوحة وأهلها واستقرت في المشرق خلال القرن الأول الهجري، ويفترض أن تطبق على الأندلس، ولكن الكثير من الروايات تعطي صورة مخالفة.

ابتداءً نشير إلى الإجراءات التي اتخذت في فتح إفريقية والمغرب، لتكون مدخلاً إلى الحديث عن معاملة الأرض في الأندلس.

يبدو أنّ الغارات في إفريقية كان يرافقها كثرة الغنائم، والسبي خاصة، وإرسال الخمس إلى المركز[١].

وكان للسبي أهمية خاصة بالنسبة للخلفاء. يقول ابن عذاري: " وكان الخلفاء بالمشرق يستجبون طرائف المغرب ويبعثون بها إلى عمّال إفريقية فيبعثون لهم البربريات"[٢].

---

١. انظر ابن عذاري، البيان ١/١٢، وص١٦-١٧وص٤٠، وص٤٣، وص٥١، والمالكي، رياض النفوس ١/٥٧.

٢. ابن عذاري، البيان ١/٥٢.

وتـــرد الإشـــارة الأولـــى إلـــى تنظـــيم الخراج زمن حسّان بن النعمان (٧٤-٨٥هـــ/ ٦٩٤-٧٠٤م)، فيذكـــر ابـــن عبد الحكم عن حسان أنه " دوّن الـــدواوين ووضع الخراج على عجم إفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر، وعامتهم من البرانس(المستقرين) إلاّ قليلاً من البتر(البدو)" [١].

ويذكـــر المالكي عن حسّان " فلمّا رأت الروم (شدته) وقهره (لهم وعلموا) أنهم لا قوام لهم به سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج فأجابهم إلى ذلك"[٢].

ويتطـــرق المالكـــي إلـــى سياسة حسّان بن النعمان مع البربر فيقول: إنّ "البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم حتى أعطوه اثني عشر ألف فارس يكونون مـــع العـــرب مجاهـــدين، فأجابـــوه وأســـلموا على يديه"، ولم يكتف بذلك، بل "وأخـــرجهم مـــع العـــرب يفتحون إفريقية". ويضيف "فمن ذلك صارت الخطط للبربـــر بإفـــريقية، فكـــان يقـــسم الفيء بينهم والأرض.فدانت له إفريقية ودوّن الـــدواوين"[٣]. ويقـــول ابن عذاري: إنّه في سنة ٨٢هـــ/٧٠١م" استقامت بلاد إفريقية لحسّان بن النعمان فدوّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفـــريقية ومـــن أقام معهم على دين النصرانية [٤]. أي أنّ الخراج فرض على الروم والنصارى الآخرين مع الأفارقة والبربر.

---

١. ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص٢٠١. وانظر الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب ص٦٤الذي يضيف "الروم" إلى البربر.

٢ . المالكـــي، رياض النفوس ١/٥٧. وانظر الطالبي، الدولة الأغلبية، ص٢٨-٢٩ Levi-Provencale,un Nouveau Recit De La conquete del Afrique du Nord و par Les Arabes, Arabica p:14et seq.

٣. المالكي، رياض النفوس١/٥٦-٥٧.

٤ . ابن عذاري، البيان ١/٣٨.

وقد جعل حسّان الدواوين، ومنها ديوان الخراج إلى جانب دار الإمارة[1].

هكذا يتبين أنّ الخراج فرض على الأرض، وأنّ البربر في إفريقية وبتأثير سياسة حسّان أسلموا، وشاركوا في الجهاد وبالتالي في الفيء، وهذا يعني ترك أراضيهم بأيديهم، ولن يكون لهم بعد ذلك من الأرض شيء إلاّ من الصوافي، فالمالكي نفسه يقول:" واستقامت إفريقية كلها، وآمن أهلها، وقطع الله عز وجل مدة أهل الكفر بها، وصارت دار إسلام إلى وقتنا هذا"[2].

وأخضع موسى بن نصير المغرب، وانتشر الإسلام بين أهله[3]. ومع ذلك يبدو أنّ الإسلام عمّ في المغرب في ولاية إسماعيل بن أبي المهاجر الذي ولاّه عمر بن عبد العزيز على إفريقية سنة ١٠٠هـ/٧١٨م الذي " كان حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز"[4].

وينتظر أن لا يدفع الخراج من أسلم قبل أن يقدر عليه، بل يدفع العشر. ولا نسمع عن مشكلة كبرى مع البربر إلاّ أيام هشام بن عبد الملك في ثورة ميسرة(الحقير) المدغري سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م، وسببها المباشر تعسف أمير إفريقية عبيد الله بن الحبحاب (١١٦-١٢٣هـ/٧٣٤-٧٤١م)، وظلم عامله على طنجة. يقول ابن عذاري: "فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب منّاهم (الأمويين) بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة،

---

١. حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية١/٥١.

٢. المالكي، رياض النفوس ١/٥٧.

٣. ابن عذاري، البيان ١/٤٣.

٤. ن.م. ١/٨٨.

فحينـئذ عدت البرابر على عاملهم على طنجة فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحـبحاب". ويضيف ابن عذاري:"ثم إنّ عمر بن عبدالله المرادي، عامل طنجة ومـا والاهـا، أساء السيرة وتعدّى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر وزعـم أنهـم فـيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب الإسلام، فكان فعله الذميم سبباً لنقض البلاد وخروج الفتن العظيمة"[1].

وواضـح أنّ إجـراءات عامل طنجة تخص المسلمين، وأن سبي البربر المسلمين مخالف للمفهوم الإسلامي، كما أنّ الزيادة في العشر على الأرض وفي الصدقات هو تجاوز وجور على المسلمين.

هكـذا يتبين أنّ أراضي إفريقية صارت خراجية، إلاّ تلك التي أسلم عليها أهلهـا، وصـارت إفريقية دار إسلام بدءاً بولاية حسان. ويلاحظ أنّ الأمويين حبذوا السبي من البربر غير المسلمين، الذي خمس، بينما ردّ عمر بن الخطاب السبي في السواد والأهواز مثلاً لأنه رأى أنّ إبقاء الفلاحين على الأرض أجدى.

وينتظـر أن يثيـر الفقهاء في إفريقية مسألة الصلح والعنوة، وهي مسألة ظهـرت زمن المروانيين من بني أمية بالنسبة لإمكان زيادة الضرائب(الجزية والخراج)، كما فعل عبد الملك في الجزيرة الفراتية والشام[2]، ولمعاملة الأرض بعـد الفـتح بـين اعتـبارها غنـيمة أو فيـئاً للأمّـة. وقد تناولها الداودي (ت٤٠٢هـ/١٠١١م)، في روايته وهو يروي عن سحنون(ت٢٤٠هـ/٨٥٥م)، قال: " كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف منها عن حقيقة هل هي عنوة أو صلح،

---

١. ن. م. ٥٢/١. وانظر الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص١٠٩.

٢. انظر: أبو يوسف، الخراج، ص٤١.

وســـألت عن ذلك علي بن زياد[1](ت١٨٣هـــ/٧٩٩م) فقال لم يصح عندي فيها شيء". ثم يقول الداودي " إذا خفي خبر الأرض ولم يعلم هل هي صلح أو عنوة أو أســـلم علـــيها أربابها فهي لمن وجدت في يده، وإن كان لا يُدرى بأي وجه صـــارت إليه" [2]. ويضيف " وأمّا بلاد المصامدة وأرض مراكش، قال ابن عبد الحكم: اتفق أشياخنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها، وليس فيها صلح ولا عـــنوة"[3]. ويورد الداودي رواية: " قيل: إنّ منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صـــلحاً"[4]، وهـــو قـــول لا دلالـــة فيه. ويورد رواية أخرى:" إنّ إفريقية، من طرابلس إلى طنجة، تجري على ما تواطأت عليه القرون في أمرها، وتقر بأيدي مالكهـــا"[5]. وهـــذه الرواية تستثني ما اغتصب أو ما أخذ قسراً أو ما أجلي عنه أهلـــه " بالأخمـــاس"، وربط الجلاء بالأخماس يشير لأراضٍ سبي أهلها أو جلوا عنها وصارت في حكم الصوافي.

وتبقـــى إشـــارة سحنون، الفقيه الكبير، بأنّ الصلح أو العنوة ليست واردة، وأمـــا إشارة ابن عبد الحكم إلى الأراضي التي أسلم عليها أهلها، فتعني الإقرار بأنّ الأرض تركت بأيدي أصحابها.

---

١. وهـــو علي بن زياد العبسي التونسي (ت١٨٣هـــ/٧٩٩م) كان ثقة بارعاً في الفقه، سمع مـــن مالـــك بـــن أنس وسفيان الثوري ومن الليث بن سعد، ودرس عليه سحنون وأسد بن الفـــرات. وهـــو أول مـــن أدخل المغرب جامع سفيان الثوري وموطأ مالك. أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص٢٥١-٢٥٣، المالكي، رياض النفوس ١٥٨/١.

٢. كتاب تذكار ليفي بروفنسال ٤٠٨/٢.

٣. كتاب تذكار ليفي بروفنسال ٤١٠/٢.

٤. ن.م. ٤٠٨/٢.

٥. ن.م. ٤٠٩/٢.

- وحـــين ننظـــر للأندلس لا نجد ما يدعو لاتخاذ أسس في معاملة الأرض وفـــي الـــضرائب تخـــتلف عمّا سار عليه الأمويون في المـــشرق، وفي إفريقية. وقد يكون للأوضاع المحلية في الأندلس بعض الأثر في التطبيق في إطار الأسس/المبادئ العامة.

يلاحـــظ هـــنا أنّ الأندلس اعتبرت ابتداءً "ثغراً" و"دار جهاد"[١] لأنّ البحر يفـــصلها عن البلاد الإسلامية، ولأنها أمام الأعداء في الشمال والغرب. وكانت إســـبانيا تحـــت حكم القوط[٢]، وهؤلاء-كفاتحين آنئذٍ- كانوا يأخذون الثلث من الأرض أو من ناتجها.

وكانت إسبانيا مقسمة إلى عدد من المقاطعات، يحكم كلا منها دوق، وتضم كل مقاطعـــة عدداً من الوحدات الإداريّة يحكم كلاً منها قومس(كونت). وتقوم الوحدة علـــى المديـــنة/ القلعة وما يرجع إليها من قرى وضياع وأراضٍ زراعية[٣]. وقد استمر هذا الوضع في الفترة الإسلامية، بمعدل سبع إلى عشر قرى لكل مدينة[٤]، وصار يطلق على المدينة وتوابعها بعد الفتح اسم الكورة[٥].

إنّ المصادر العربية عن فتح الأندلس جاءت متأخرة كما إنّ معلوماتها قليلة وذلـــك يكوّن مشكلة للباحث وليس له إلاّ أن يبحث عن أية إشارات مفيدة. وهنا

---

١ . مؤلف مجهول، أخبار مجموعة ٢٣، وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس٣٩.

٢ . عن القوط انظر حتاملة، إيبريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص٢٠٢وما بعدها.

٣ . حتاملة، إيبريا قبل مجيء العرب المسلمين ص٢٦٢وحسين مؤنس، فجر الأندلس ص٢٢ .Collins-Early Medieval Spain.106.

٤ .. Glick,From Muslim Fortress to Christian Castle p.17.

٥ . انظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ٦١/١-٦٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٥٩٦.

نـنوه بمـصدر إسـباني كـتب حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجـرة)، وتـناول الفتح والفترة الأولى بعده، وهو بحكم المعاصر للأحداث، ويشار إليه بـ "تاريخ ٧٥٤"[١].

يلاحـظ ابتداءً أنّ أولى معارك الفتح كانت في وادي لكّة إذ دخل لذريق ومعـه ملـوك/أمراء الأندلس الموالين له- معركة حاسمة مع المسلمين بقيادة طارق بن زياد وانتهت بتدمير الجيش القوطي(في٢٨رمضان ٩٢هـ/١٩تموز ٧١١م). وجمع طارق "الفيء" (الغنيمة) وقسمه [٢].

أمّـا المـواجهات التالـية فكانت بين الأمراء المحليين(أو الكونتات جمع كونت) والمسلمين. فمثلاً تقدم طارق إلى إسْتِجَّة حيث تجمّع فلال معركة وادي لكّة، وبعد قتال شديد صالحت إسْتِجَّة على الجزية [٣]. ويقول المقري" ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها"[٤].

وواجه تدمير (الأمير المحلي) المسلمين ومركزه أوريولة[٥]وبعد قتال شديد صالح على جزية محددة عن كل فرد [٦].

---

١ . انظر Roger Collins,The ArabConquest of Spain p710-797.

٢ . ابن عذاري، البيان ٨/٢، المقري، نفح٢٥٩/١.

٣. مؤلـف مجهـول، أخبار مجموعة ص٩، ابن عذاري، البيان ٨/٢، المقري، نفح٢٦٠/١ وحتاملة، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص٢٦٢ .

٤ . المقري، نفح، ٢٦٠/١.

٥ . عن أُوريولة، انظر الحميري، الروض المعطار، ص٦٧.

٦. المقـري، نفـح ٢٦٤/١، مؤلـف مجهول، أخبار مجموعة ص١٣، حتاملة، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص٧٦-٧٩.

ويذكـــر الحميـــري أنّ مدينة وَشْقَة[1] حوصرت حصاراً طويلاً حتى بنى المسلمون المساكن وغرسوا الغروس وحرثوا لمعايشهم واستمر الحصار سبعة أعـــوام، ثـــمّ " استأمنوا لأنفسهم وذراريهم، فمن دخل الإسلام ملك نفسه وماله وحرمته، ومن أقام على النصرانية أدى الجزية"[2] .

وهكـــذا نجد الإشارات إلى فرض الجزية على من خضع بعد القتال وعلى من صالح. ولا ترد إشارة إلى معاملة الأرض، كما هو الحال في الفتوح عامة، لأنّ ذلك يأتي بعد الفتح واستقرار الأمور.

واســـتولى موســـى بن نصير على ماردة سنة ٩٤هـــ/٧١٣م، بعد مقاومة شـــديدة، "فـــنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم"، وصالح أهلها على أنّ " جميع أمـــوال القتلـــى يـــوم الكمـــين وأموال الهاربين إلى جليقية، للمسلمين، وأموال الكنائس وحليها لها"[3].

وهـــنا اعتبـــرت أموال القتلى في معركة يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جليقية وكذلك أموال الكنائس وحليها غنيمة. وبالتالي فالأراضي تكون صوافي، وهي – كما قرر عمر بن الخطاب – فيء (غنيمة) للمقاتلة. وسنتناول موضوع الصوافي لاحقاً.

---

١. عن وشقة: انظر الحميري، الروض المعطار، ص٦٧.

٢. بروفنصال، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار للحميري ص٧٩٥.

٣. المقري، نفح١/٢٧٠ وانظر ابن عذاري، البيان٢/٨٥ وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٥. وانظـــر حـــسين مـــؤنس- فجـــر الأندلس، ص٤٤٢حيث يورد نص الصلح عن الرازي، مترجماً للإسبانية، وقد فقد الأصل العربي.

– ولا يهمنا الدخول في تفاصيل سير حركة الفتح على يد طارق بن زياد، ثم موسى بن نصير، بل نكتفي بالإشارات التي تتصل بموضوع البحث.

وهـنا تواجهنا روايات، لا تخلو من تضارب وتباين، وبخاصة في كتاب رحلة الوزير (أو الرّسالة الشريفية) تنسب إلى موسى بن نصير اتخاذ إجراءات في الأراضي المفتوحة.

جـاء فـي رواية أنّ موسى بن نصير فتح البلاد من عمل إشبيلية " فبدأ بهـا...ثـمّ سـار منها إلى لبلة ثمّ إلى باجة ثم إلى أكشبونة على سيف البحر، فافتـتحها أجمـع سـلماً"[1]. وفـي روايـة لمحمـد بـن موسـى الرازي[2] (ت٢٧٧هـ/٨٩٠م) إشارة إلى تحرك موسى بن نصير في الاتجاه نفسه من إشبيلية إلى أكشبونة، من دون وصف طبيعة الفتح[3]. والقول إنّ الفتح كان سلماً يعني أداء المغلوبين الجزية للمسلمين مع بقائهم في أراضيهم.

ويـورد الغساني رواية عن محمد بن مزين(ت٤٧١هـ/١٠٧٨م) نقلاً عن محمد بن موسى الرازي (ت٢٧٧هـ/٨٩٠م)، في سِفْره (الرايات)، أنه حين تمّ افتـتاح الأنـدلس " قسمها موسى بن نصير البكري التابعي بين الجيوش الذين دخلـوها كمـا قـسّم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغانمها، وأخرج من أرضها ورباعهـا الخمـس، كمـا أخرجه من سبيها ومتاعها. واختار من خيار السبي وصغاره مئة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وترك سائر

١.الغساني، رحلة الوزير، ص١٣٦.

٢. انظـر عـن محمد بن موسى الرازي: ابن الأبار، التكملة، ٣٦٦/١، الزركلي، الأعلام، ١١٧/٧.

٣. الغساني، رحلة الوزير، ص١٣٩.

الخمس من كبل وسبي ووخش الرقيق، في الخمس من الأرضين يعمرونها ليتّث مال المسلمين، وهم أهل البسائط، وكانوا يعرفون الأخماس وأولادهم بنو الأخمس"، وأضاف " وأمّا سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية- وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدي به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأراضيهم". ثمّ قال:" "فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم، وأصبحت ملكاً لهم، إلاّ وقسّم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلاّ ثلاثة بلاد، وهي شنترين وقلنبرية في الغرب وشيه في الشرق، وسائر البلاد خمست وقسمت...ثمّ توارث الأراضي الأبناء عن الآباء. والذي ذكره الناس والعلماء من أرض (الصلح) وأرض العنوة بالأندلس فإنما هو مال الخمس، هو أرض العنوة، وما صولحوا عليه فهو حال الشمل من أرض وشجر لا سائر أموال الناس"[1].

وهذه الرواية قلقة، فهي تبين أنّ أكثر الأراضي فتحت عنوة، مع أنّ المواجهة، بعد المعركة الحاسمة مع لذريق، كانت مع حكام المدن الذين كانوا يصالحون عن مدنهم عادة.

وأورد الغساني رواية أخرى تشعر بذلك، " وقال بعض علماء السلف بأمر الأندلس أنّ أكثرها إنما فتح صلحاً إلاّ الأقل من مواضع معروفة وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلاّ أذعنوا إلى الصلح، ولذلك بقي الروم

---

١. الغساني، رحلة الوزير ص١٣٩-١٤٠.

فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم"[1]. وهي رواية واضحة الدلالة في أنّ الأرض بقيت لأهلها يتصرفون بها وأنها صارت خراجية [2].

كما أنّ رواية محمد بن مزين(عن محمد بن موسى الرازي)؛ التي تتحدث عن أراضي العنوة التي يفترض أنها صارت غنيمة للمسلمين، تبين أنها تدفع الثلث لهم، وهو ما كان يدفع للقوط من قبل [3]، فهو بمثابة الخراج. وأمّا أرض الصلح فقد قرنتها الرواية بإجراءات الرسول صلى الله عليه وسلم في خيبر، علماً بأنّ خيبر اعتبرت غنيمة وخمست، وهذا عكس ما تدّعيه الرواية. وتبين الرواية أنّ أهل الصلح (في أرض الشمال)" صالحوا على جزء منها (الأرض) مع أداء الجزية"، وهو مثل ما ذكر عن أرض العنوة، من دفع الثلث(من الأرض أو من حاصلها) في الخراج، إضافة إلى الجزية.

من كل ذلك يتبين أن الأرض في عامتها- سواء اعتبرت أرض صلح، أو أرض عنوة-صارت خراجيّة.

وبعد هذا يورد الغساني رواية تفيد أنّ موسى بن نصير وجماعة من فاتحي الأندلس وفدوا على الوليد" يستأذنونه في إخلائها والرحيل عنها إلى أوطانهم فقربهم وآنسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها وأقرهم...ولم يجعل لهم سبيلاً إلى الخروج منها..." [4]، وهذه الرواية تثير التساؤل، فلماذا يقطعهم الوليد

---

١ .الغساني، رحلة الوزير، ص١٤٠.

٢ . ن. م. ص١٣٦عن خط فتوح موسى بن نصير.

٣ .انظر Collins,Early Medieval Spain p.٢٤ وحسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٩٧-٥٩٨وص٦٠٢.

٤. الغساني، رحلة الوزير، ص١٤٠.

إقطاعـــات إذا كانـــت الأراضـــي وزعت عليهم بعد التخميس؟ ولماذا يطلبون الـــرحيل عـــن البلاد بعد تملكهم الأراضي؟ أليس في هذا التباس مع ما حصل زمن عمر بن عبد العزيز(كما سنرى)؟.وجاء في رواية أخرى أنّ الوليد أقرهم (أي الفاتحـــين) على ما"قسم موسى بن نصير" بينهم وسجل لهم به، وأقطع من دخل الأندلس بعدهم من الخمس إقطاعات[1]، علماً بأنّ موسى بن نصير وصل إلى دمشق والوليد في مرضه الأخير، وكأن هذه الرواية تنسب للوليد ما قام به عمر بن عبد العزيز.

كما أن فترة ولاية موسى بن نصير كانت فترة قصيرة، حافلة بأعمال الفتح حتى آخر أيامه ولا تتسع لتنظيم الأرض والضرائب.

وبعد هذا، فإنّ عدد الفاتحين كان قليلاً، حوالي(٢٥,٠٠٠)، وكانت الحاجة ملحة إلى حاميات في المدن الرئيسة، ولا مجال لانتشارهم على الأرض.

وهنا نذكر أنّ التخميس في البلاد المفتوحة من أيام الراشدين لم يشمل إلاّ الصوافي، إذ إنّ عمر بن الخطاب قرر أنّ أرض الصوافي فيء (أي غنيمة) للمقاتلـــة، أربعة أخماسها لهم ولبيت المال خمسها. ثم ضمّت أرض الصوافي لبيت المال في أيام معاوية[2].

---

١. الغساني، رحلة الوزير، ص١٤١.

٢. انظر غيداء خزنة كاتبي، الخراج ص٢٩٧-٢٩٨و ص٣٠٧-٣٠٨.

والصوافي في الأساس أراضي الأسر الحاكمة السابقة وأراضي بعض النبلاء، ومن قتل أو جلا أثناء الحرب، وكل أرض من دون مالك بعد الفتح مباشرة [١].

ويبدو أنّ أرض الصوافي في الأندلس كانت واسعة، فضياع أولاد الملك غيطشة(Wittiza) مثلاً كانت ثلاثة آلاف ضيعة [٢]. وللملك ضياعه العائلية إضافة إلى ضياع التاج، ولا بد من أنّ ضياع لذريق العائلية والملكية كانت كثيرة وبخاصة في منطقة قرطبة حتى أنهم سموا قرطبة بلاط لذريق، وقد اعتبرت هذه من الصوافي، وهذا يصدق على أرض من جلا أو قتل أثناء الحرب [٣].

ولا يخفى أنّ أملاك النبلاء الذين قتلوا أو هربوا كانت واسعة. يذكر كتاب(التاريخ ٧٥٤) أنّ موسى بن نصير أعدم في طليطلة بعض النبلاء الذين كانت لهم صلة بهرب (أوبة) أخ الملك غيطشة [٤].

ويشير كتاب (أخبار مجموعة) إلى أسر ملك قرطبة من مغيث مولى الوليد ويقول: " ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره، منهم من عقد على نفسه أماناً ومنهم من هرب إلى جليقية". فمن حصل على الأمان حفظ أرضه كما فعل صاحب تدمير، ومن هرب اعتبرت أراضيه صوافي. وفي أخبار مجموعة أنّ

---

١. أبو يوسف، الخراج، ص٥٧-٥٨. أبو عبيد، الأموال ص٢٦١، يحيى بن آدم، كتاب الخراج، ص٦٤.

٢. المقري، نفح ١/ص٢٢٦-٢٢٧.

٣. انظر Collins- Early Medieval Spain P.١١٥،١٥٢، المقري، نفح ١/١٦٠، ٢/٢٣ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٦٢٣.

٤. Collins,Conquest P.٣٠،٤٧،٤٨.

تدمير عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده فصارت تدمير صلحاً كلها...وعاملهم على ترك أمواله في يديه"[1]، وترد إشارات إلى هرب الكثير من السكان من وجه القوات الفاتحة، كما أنّ أعداد السبي تبدو كبيرة[2].

نشط عبد العزيز بن موسى بن نصير في ولايته(صفر٩٥هـ-رجب ٩٧هـ/نوفمبر٧١٣/مارس٧١٦) لفتح جنوب شرق الأندلس (مالقة، غرناطة، مرسية) ونقل مركز الحكم إلى إشبيلية[3].

ويفهم من (التاريخ ٧٥٤) أنّ فترة ولاية عبد العزيز-(ويجعلها ٧١٢-٧١٥م) أي(٩٤-٩٧هـ)- كانت مهمة في أنها أسست حكم المسلمين في شبه الجزيرة، ويقول إنّ عبد العزيز كان" خلال ثلاث سنوات يخضع إسبانيا سلمياً إلى عبء الضرائب"[4]. وهذا يعني أنه بدأ بتنظيم الإدارة، بما في ذلك القيام بإحصاء السكان لفرض الجزية، والنظر في أمور الخراج وتهدئة البلاد[5].

---

١. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص١٣. وانظر المقري، نفح ٢٦٧/١.

٢ . الغساني، رحلة الوزير ١٧٩، وانظر المقري، نفح ٢٥٩/١، ٢٣/٢.

٣ . المقري، نفح ١٧١/١، مؤلف مجهول، أخبار مجموعة ص١٩. وانظر Collins-Early Medieval Spain P.153. يجعل كتاب (التاريخ ٧٥٤) مجيء طارق سنة ٩٢هـ/٧١١م ومجيء موسى بن نصير سنة ٩٢هـ/٧١١م، وتركه الأندلس في أواخر ٧١٢/٩٣، بينما تجعل الرواية العربية عودة موسى بن نصير سنة ٩٥هـ/٧١٣م. Collins, Conquest p.39off.

٤ . Collins,Conquest P.٣٨.

٥. انظر شالميطا، في: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الجيوسي ١٠٤٤/٢.

ويهمنا هنا صلح عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير(Theodomir)، سيّد سبع مدن وما يتبعها من أراضي جنوب شرق الأندلس، وجاء فيه " أنه (أي تدمير) نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته، أن لا ينزع عنه ملكه [١]، ولا أحداً من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يُقتلون ولا يسبون، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم ما تعبد، وما نصح، وأنّ الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن، أوريولة وبلنتلة ولَقَنْت ومولة وبَقْرة وأنّة ولورقة. وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبراً علمه، وأنّ عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا وأربعة أقساط خل وقسطي عسل وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك، كتب في رجب ٩٤هـ" أي نيسان ٧١٣م [٢].

هذا الصلح ترك الإدارة المحلية بيد تدمير، وحفظ له أمواله، وأمن رعيته على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وكنائسهم، على دفع جزية سنوية، عن كل فرد، ديناراً ومواد طعام عينية، كما ذكر. وهو صلح يشبه في الأساس عهود الصلح الإسلامية في المشرق. ولا ينتظر أن يكون هذا هو الصلح الوحيد، والأرجح أنّ سلسلة عهود مماثلة عقدت مع عدد من المدن من خلال الكونتات أو مجالس

---

١. يرد في كتاب أخبار مجموعة" وسيحافظون(الأهالي) على رؤسائهم " بدل" لا ينزع عنه ملكه"، ولا ذكر فيه لـ" ولا أحداً من النّصارى عن أملاكه" مؤلف مجهول، أخبار مجموعة ص١٣.

٢. انظر العذري، نصوص عن الأندلس ص٤،٥؛ الضبي، بغية الملتمس ص٢٥٩، لافي بروفنصال، صفة جزيرة العرب من كتاب الروض المعطار للحميري ص٦٩. وانظر.ص٦٩,٤٠-٣٩.Collins,Conquest PP.

المدن حسب الأوضاع. وهناك ما يدعو للاعتقاد بأنّ صلحاً مماثلاً عقد مع أهالي بنبلونة [١].

ومـــثل هذا الصلح يدل على أنّ ملكية الأرض لم تتأثر بأحداث الفتح، فقد كان القوط يفرضون الثلث على الأرض، فاستمر هذا أو ما يقرب منه بعد الفتح [٢].

أمّا مقادير الجزية فلا تتطابق مع ما فرض في بعض جهات المشرق(ربما باستثناء النقد). ولعلها أقرب إلى الأعراف القوطية، ويمكن الافتراض أنّ مقادير الجزية تختلف من موقع لآخر في المواد العينية [٣]. ومثل هذه الترتيبات مناسبة للفاتحـــين فـــي البداية لأنّها تجعل المقاتلة أكثر حريّة في متابعة الفتح من دون الحاجـــة إلـــى ترك حاميات في المدن كافة ، خاصة وأنّ قوّات الفاتحين كانت متواضعة.

يتبـــين إذن أنّ شبه الجزيرة العربية شهدت ابتداءً أنموذجين للإدارة: الأول جهـــات بقـــي لهـــا أمراء محليون، مثل تدمير، والثاني جهات تدار مباشرة من العرب، ووضعت حاميات في مدنها الرئيسة.

وتـــرد إشـــارات يفهم منها أنّ بعض المقاتلة استولوا على أراضٍ في فترة الفـــتوح، ويرجح أنها كانت- على الأغلب- من الأراضي الخالية، نتيجة مقتل أصـــحابها أو جلائهـــم، وهذه من الصوافي، فملكوها وبقوا عليها [٤]. ويشير

---

١. انظـــر Collins,Conquest P.40.وانظـــر عـــبد الـــواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار، ص١٨١،ص٢١٢.

٢ . انظر الغساني، رحلة الوزير ص١٤٠.

٣ . انظر Collins,Conquest P.41.

٤ . انظر لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة ١٠٩/١.

المقـــري إلى الوضع بوضوح إذ يقول: " وكانت العرب والبربر، كلما مرّ قوم مـــنهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس"[١].

وقـــدم الحـــرّ والياً على الأندلس ومعه٤٠٠من الوجوه من إفريقية، في ذي الحجـــة ٩٧هـــ/آب٧١٦م وبقي إلى رمضان١٠٠هـــ/نيسان ٧١٩م فكان والياً ثلاث سنين [٢]. ولا يرد في المصادر العربية شيء عن إدارته إلاّ أنه نقل مقر الإمارة من إشبيلية إلى قرطبة. ولكن يفهم من (التاريخ ٧٥٤) أنه حقق شيئاً من الـــنظام الإداري بإرســـال الموظفين الإداريين الرئيسين للمدن (ولاة). كما اهتم بمعاقبة البربر الذين أخفوا بعض الغنائم. وأمّا بالنسبة للمسيحيين فيبدو أنّ الحرّ أتم ما بدأه عبد العزيز من فرض الخراج على إسبانيا الخارجية (الشماليّة) . كما أنـــه أعـــاد بعـــض الضياع التي استولى عليها العرب إلى أصحابها السابقين، ويـــرجح أنها أراضي نبلاء وملاكين هربوا وعادوا إلى أراضيهم بعد استقرار الوضـــع مقابـــل دفع الخراج [٣]. وبإيجاز فإنه نظّم الضرائب على أهل البلاد، وثـــبت نظام الأراضي السائد قبل الفتح. وأبقى للفاتحين الأراضي التي صارت لهم.

---

١ . المقري، نفح١/٢٧٦، وانظر حسين مؤنس، فجر الأندلس ص٦٢٨.وانظر الإشارات إلى عرب جليقية وعرب استرقة والمدائن التي خلف الدروب وإلى عرب سرقسطة، في مؤلف مجهول، أخبار مجموعة ٣٨.

٢. ابـــن عـــذاري، البـــيان٢/٢٥. ويجعـــل(الـــتاريخ ٧٥٤) فتـــرة الحـــر٧١٥-٧١٨م أي Collins,Conquest P. 96-99

٣. Collins,Conquest P.46.

وشـــهدت هـــذه الفتـــرة إدخال نقود عربية جديدة، "دنانير" على غرار نقد المملكـــة القوطـــية، ولكن باللغتين العربية واللاتينية. ولعل هذا يشعر باستقرار الإدارة.

- وتضطرب الروايات مرة أخرى في إشاراتها إلى الإجراءات في فترة عمر ابـــن عـــبد العزيز. ولّى عمر السمح بن مالك الخولاني على الأندلس في (رمضان١٠٠-ذي الحجة ١٠٢هـ/نيسان٧١٩-حزيران ٧٢١م)، ويروى أن الخليفة فكّر بسحب المقاتلة من الأندلس " إذ خشي تغلب العدو عليهم"[١] لكـــن السمح طمأنه على استقرار أمور المسلمين فيها. ثم إنّ الخليفة أولى الأنـــدلس عـــناية خاصّـــة فأفردها عن ولاية إفريقية وجعلها ولاية بذاتها واعتبرها ثغراً وراعى ذلك في التعامل مع الأرض[٢].

وتتجه الروايات إلى أنّ الخليفة أمر السمح بتخميس الأرض، لكنها تتباين فـــي ذلك، هل هي أراضي الأندلس عامّة أو بعضها.ففي رواية "أن ابن نصير قـــسّم وخمّـــس بعض البلاد، وأعجلته حركته منها...فلمّا ولاّها...عمر بن عبد العزيـــز الـــسمح بن مالك الخولاني أمره أن يخمّس ما بقي منها"[٣]. وقد سبق وأوضـــحت أنّ تنظـــيم التعامل مع الأرض بدأ زمن عبد العزيز بن موسى بن نصير.

---

١. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٩، وهذا جانب من سياسة عمر بن عبد العزيز العامـــة، إذ سبق له أن سحب جيش مسلمة بن عبد الملك من أمام القسطنطينية لأسباب أمنية واستراتيجية، انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٥٣/٦.

٢. انظر ابن القوطية ص٣٩، وابن عذاري، البيان٢٦/٢، ومؤلف مجهول، أخبار مجموعة ص٢٣.

٣. الغساني، رحلة الوزير، ص١٤١.

وفي رواية للرازي عن عبد الملك بن حبيب(ت٢٣٨هـ/٨٥٢م) أنّ الخليفة أمر السمح" أن يخمّس ما بقي من أرضها وعقارها- من دون إشارة إلى البدايات- ويخرج منها خمس الله تعالى، ويقر القرى بأيدي أربابها[١]. وفي "أخبار مجموعة" رواية تفيد أنّ الخليفة أمر السمح " أن يخمّس أرضها ويخرج مما (الأصل ما) كان عنوة خمساً لله، من أرضها وعقارها، ويقر القرى بأيدي غنّامها بعد أن يأخذ الخمس"[٢].

وهي رواية في اتجاه رواية ابن حبيب نفسه إلا أنها تتحدث عن أرض الصلح وأرض العنوة، وهو حديث فقهي لم يكن له دور في الواقع.

وهكذا يتبين أنّ القرى عامّة بقيت بأيدي أهلها، أي جُعلت أرضاً خراجيّة، وأنّ التخميس بدأ من قبل، وأنه شمل الآن ما بقي من الأرض والعقار. وهكذا يتبين أنّ القرى عامّة بقيت بأيدي أهلها، باستثناء أرض الصوافي.

تتجه الروايات إلى أنّ الأرض التي خمّست هي أرض العنوة[٣]. ويلاحظ أنّ الحديث عن أرض العنوة وأرض الصلح هو حديث فقهي ظهر في المشرق في أواسط الفترة الأموية، في حين أنّ عامّة الأرض في البلاد المفتوحة اعتبرت خراجيّة.

وفي رواية للرازي عن عبد الملك بن حبيب، أنّ السمح" ميّز أرض العنوة من أرض الصلح ليصح الخمس" وتضيف أنه" لما أتم عمله خيّر الخليفة بما

---

١. ن. م. ص١٤٣.

٢. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة ص٢٣. ولعلّ كلمة "غنامها" تحريف لـ"ثُنائها" أي أهلها.

٣. انظر المقري، عن ابن حيان(ت٤٦٩هـ/١٠٧٦)١/١٤-١٥، الغساني، رحلة الوزير، ص ١٤٣، وابن عذاري، البيان ٢/٢٦.

عملـــه فـــي أرض العـــنوة وأرض الشمل، وهي التي فتحت صلحاً". ثمّ تجعل الـــرواية معاملة هذه الأرض وأرض العنوة معاملة واحدة، إذ تقول عن أرض الـــشمل: "فـــإنّ أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض منها مثالثة ومرابعة، كيف ما كان طيب الأرض وغلتها" ويضيف "حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر"[١]. فالرواية تجعل معاملة أرض الصلح وأرض العـــنوة واحـــدة مع أنها تبين أنّ أرض الشمل صولح أهلها على الجزية وعلى الثلث والربع من الأرض أو من واردها، أي فرض الخراج على الأرض.

أمّا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بخيبر فإنه اعتبرها غنيمة للمقاتلة ولم يتبع مثل هذا الإجراء في أي بلد آخر في العصر الراشدي أو الأموي. إنّ الأرض التـــي اعتبـــرت غنـــيمة للمقاتلة زمن الراشدين هي أرض الصوافي وحـــدها. واعتـــبار الأنـــدلس ثغراً أفضى إلى إقطاع المقاتلة منها بعد إخراج الخمس.

ويبـــين عـــبد الملك بن حبيب أنّ السمح" ميّز أرض العنوة ليصح الخمس فينـــزل القـــسم بتخمـــيس قرطبة...وأخرجت البطحاء المعروفة بمصلى بقبلي قـــرطبة في الخمس" فأمر الخليفة بجعل البطحاء مقبرة للمسلمين[٢]. وفي رواية أخرى أنّ البطحاء خرجت في خمس قرطبة بقبليها[٣].

---

١. الغساني، رحلة الوزير، ص١٤٣.

٢. الغساني، رحلة الوزير، ص١٤٣.

٣. ن. م. ص١٤٢.

وينفـــرد ابن القوطية بالقول إنّ الخليفة وجه جابراً مولاه ليخمس الأندلس، فنزل قرطبة، ثم أتته وفاة عمر فرفع يده عن التخميس[1]. وهذه الرّوايات تشعر بأنّ التخميس المهم حصل في منطقة قرطبة التي تتميز بسعة صوافيها.

بعد هذا يلاحظ أنّ عمر بن عبد العزيز أوصى السمح بن مالك أن" يحمل الـــناس على طريق الحق، ولا يعدل عن منهج الرّفق"[2]، وهذا يشعر بحصول تعـــديات أو تجاوز على أرض الخراج، وربما على الصوافي، كما حصل في المـــشرق، وحـــرص الخلـــيفة على العدل. وهذا يعني أن يطبق السمح سياسة الخليفة بالنسبة للأرض الخراجية وأرض الصوافي.

ولعـــل الروايات التالية تدعم ما ذكر. ترد رواية عن عبدالملك بن حبيب، وأخـــرى دون إسناد، تفيدان: أنّ السمح دخل الأندلس ومعه "جيش من العرب"، وأراد النزول مع جندها الأول في أموالهم(أراضيهم)، ولكن هؤلاء لم يقبلوا بأية مـــشاركة، وذهـــب وفـــد منهم إلى الخليفة وشكوا إليه ذلك، وأبدوا استعدادهم للانـــسحاب والـــرجوع إلـــى بلادهم، فمنعهم من ذلك وعقد لهم بإقرارهم على أمـــوالهم علـــى أساس أنّ الأندلس ثغر، وذلك يوجب إقطاعهم الأراضي ليستقروا علـــيها كما فعل عمر بن الخطاب في الثغور في المشرق، " وكتب إلى السمح أن يقطع الجند الذين دخلوا معه من الأخماس"، أي إقطاعات جديدة في الصوافي[3].

---

١. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٥.

٢.ابن عذاري، البيان٢/٢٦.

٣. الغساني، رحلة الوزير، ص١٤٠، وعن الخلط بين الوليد وعمر بن عبد العزيز انظر ص ١٤٠-١٤١.

ويرجح أنّ أراضي خراجيّة تحوّلت إلى عشرية نتيجة تجاوز العرب عليها أو شـــرائهم لهـــا، إضافة إلى التجاوز على أراضي الصوافي، كما حصل في المشرق.

وقـــد قـــرّر عمر بن عبد العزيز أنّ أرض الخراج هي فيء للأمّة، وأنها يجـــب أن تبقى خراجيّة بدءاً من سنة ١٠٠هـــ/ ٧١٨م(المدة)، لا يجوز بيعها مـــنعاً لـــتحويلها إلى عشريّة، كما قرر تمييز أرض الصوافي الباقية. التي هي غنـــيمة للمقاتلة، ولكنها صارت- منذ أيام معاوية- تابعة للدولة تقطع منها أو تستغلها حسب المصلحة[١].

وهكـــذا يتبين أنّ السمح بن مالك جاء لتطبيق سياسة عمر بن عبد العزيز فـــي الأنـــدلس، في تمييز أرض الخراج للحفاظ عليها فيئاً للأمّة، وإقرار أهل القـــرى عامّـــة علـــى أراضيهم على الخراج (إضافة للجزية)، وتحديد أرض الـــصوافي والإفـــادة مـــنها بما يناسب الأندلس ثغراً. يعني هذا أنّ أي تخميس للأراضـــي إنما كان لأرض الصوافي ومنها كانت إقطاعات المقاتلة. وقبل هذا يبدو أنّ الأراضي التي أسلم عليها أهلها قبل إجرائه المسح اعتبرت عشرية[٢].

إنّ بـــدايات تنظـــيم الضرائب والتعامل مع الأرض في الأندلس كانت-في الواقع- زمن عبد العزيز بن موسى بن نصير، واستمرت زمن الحر، وشملت

---

١. ابـــن عـــبد الحكـــم- سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٩٤/٩٩؛عبد العزيز الدوري، نظام الـــضرائب في صدر الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢م٤٩ دمشق١٩٧٤؛ غيداء خزنة كاتبي، الخراج ص١٣٣وما بعدها.

٢. انظر شالميطا، في: الحضارة العربية في الأندلس، ج٢، ص١٠٤٨-١٠٤٩.

إعادة أراضٍ لأصحابها الإسبان، بعد أن استولى عليها بعض المقاتلة، مع بقاء وضع الصوافي غير محدّد أو مستقر.

ولـذا ينتظر أن يطبّق عمر بن عبد العزيز إصلاحاته في الأندلس بالنسبة لأرض الخراج وللصوافي.

وينسب (التاريخ ٧٥٤) إلى السمح بن مالك الخولاني(٧١٨-٧٢١م) [١] خطوتين مهمتين، الأولى: أنه اتخذ تقديراً للضريبة لكل إسبانيا (الداخلة والخارجة، أو الجنوبية والشمالية) وهذا يعني الاتجاه لتنظيم الخراج وتمييز الأرض الخراجية في الأندلس عامّة.

والثانية: أنه أجرى تقسيماً للغنائم(الأموال غير المنقولة) التي تركت من دون قسمة في إسبانيا، وخصص نسبة من تلك الأموال(أو الأراضي) لبيت المال. وهكذا اتخذت خطوات جديدة لإقامة إدارة على أسس منظمة، وتثبيت تقديرات الخراج، وتثبيت الفتح بتنظيم وضع الأراضي الخراجية وأراضي المقاتلة الأول والقادمين الآن.

ومن هنا تتضح إشارة ابن عذاري إلى أنّ الخليفة أوصى السمح بأن" يحمل الناس على طريق الحق ويعدل بهم عن نهج الرفق"[٢].

وقد يكون في إجراءات الوالي أبي الخطار(١٢٦هـ/٧٤٤م) إثر الفتنة بين البلديين(الداخلين زمن موسى بن نصير) والشاميين (الداخلين مع بلج بن بشر سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م) ما يدل بوضوح على أنّ عامّة الأرض اعتبرت خراجيّة.

---

١. هذه فترة ولاية السمح حسب التاريخ٧٥٤.

٢. ابن عذاري، البيان ٢/٢٢٦ .

ويقـــول ابن القوطية:" ونظر أبو الخطار في إنزال الشاميين في كور الأندلس، وتفريقهم عن قرطبة، إذ كانت لا تحملهم،...وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة مـــن العجـــم، وبقـــي البلديون على غنائمهم لم ينقصهم شيء"[1]. فهو يبين أنّ أراضـــي البلديـــين غنائم لهم، أي ملكهم، وأنّ الشاميين أنزلوا على أموال أهل الذمّة.

ويوضـــح ابـــن الأبار(ت٥٩٥-٦٥٨هـ/١١٩٩-١٢٦٠م) الوضع الجديد بقـــوله عـــن أبي الخطار:" ولم يقدّم في ولايته الأندلس شيئاً على تفريق جمع العـــرب الـــشاميين، الغالبـــين على البلد، عن دار الإمارة، قرطبة؛ إذ كانت لا تحملهـــم، وأنزلهم مع العرب البلديين على شبه منازلهم في كور شامهم، وتوسع لهـــم في البلاد، فأنزل في كورتي لشبونة وباجة جند مصر مع البلديين الأول، وأنـــزل باقيهم في كورة تدمير، وأنزل في كورتي لبلة وإشبيلية جند حمص(مع البلديين) الأول أيضاً، وأنزل في كورة شذونة والجزيرة جند فلسطين، وأنزل في كـــورة ريّـــة جند الأردن، وأنزل في كورة البيرة جند دمشق، وأنزل في كورة جَـــيّان جـــند قنسرين. وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة. وبقي الـــبلديون مـــن الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء مـــنها، فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة سكنوا واغتبطوا وتمولوا[2]. يتبـــيَّن من هذا النص أنّ الشاميين(أو جلهم) أنزلوا في كور محددة مع البلديين، وأنّ أراضـــي تلـــك الكور(ومن بينها تدمير) خراجيّة، وأنهم أعطوا "ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة".

---

١. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٨٣-٨٤ .

٢. ابن الأبار، الحلّة السيراء١/٦١-٦٣.

ويوضـــح لسان الدين بن الخطيب طريقة التعامل مع الثلث في حديثه عن مـــنطقة غـــرناطة (البيرة) بقوله" ولما استقر بهذه الكورة الكريمة أهل الإسلام، وأنـــزل الأميـــر أبو الخطار قبائل العرب الشاميين الكورة وأقطعهم ثلث أموال المعاهدين، استمر ساكنهم في غمار من الروم، يعالجون فلاحة الأرض وعمران القرى، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمـــة لرؤوسهم"[1]. أي أنّ الفلاحين والزراع الأصليين استمروا على فلاحة الأرض ودفع ثلث الحاصل، وهو الخراج عليهم، وليس في هذا تغيير عمّا كان علـــيه الوضع مع القوط، كما يتضح أنّ هذه الكور كانت أرضها خراجية شأن تدمير ولا شأن لها بأرض البلديين.

ممّـــا مـــرّ يتبـــين أنّ الفاتحـــين استولوا على أراضٍ أعجبتهم خلال الفتح واستقروا عليها، ولعل أكثرها من الأراضي الخالية (وتدخل في الصوافي)، وأنّ بدايـــة الإجراءات في معاملة الأراضي وتنظيم الضرائب كانت أيام عبد العزيز ابن موسى بن نصير، وأنها تمت على خطوات عبر حوالي عشر سنوات، وأنّ الأرض عامة صارت أرض خراج. وأن أراضي الصوافي كانت واسعة، وهذه هـــي التـــي خمست، وتمّ ذلك في ولاية السمح بن مالك في خلافة عمر بن عبد العزيز. كما أنّ أملاك الفاتحين أقرت وسجلت في زمنه. ثم إنّ الشاميين أنزلوا مـــن الوالي أبي الخطار في كور أراضيها خراجية، وأعطوا الثلث من واردها وهو خراجها.

هـــذا هو الواقع التاريخي للتطورات الحاصلة في التعامل مع الأراضي في الأندلس، ومن شأن الفقهاء أن ينظروا إلى الممارسات في سبيل بلورة المفاهيم الفقهـــية، فيقبلون بعضها أو يعيدون النظر في البعض الآخر، رفضاً أوتعديلاً. يقـــول الـــداودي:" وأمّا أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس وزعم أنها،

---

١. لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ١٠٦-١٠٧.

أو أكثرها، فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم، غير أنّ كلّ قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام ولم تترك لمن يأتي من المسلمين"[1]. وهذا يذكر بما فعله بعض المقاتلة في السواد والأهواز زمن عمر بن الخطاب من الاستيلاء على أراضٍ خالية(أو صوافٍ)، ولكن الخليفة أوقف ذلك آنئذٍ.

وأورد الداودي رأياً آخر لا يشير إلى صلح أو عنوة إذ يقول: " أدركنا أهل الفقه والورع في بلاد الأندلس يشترون الأرض فيها ويبيعون، ونحن متبعون لهم"[2]. وهذا يعني أنّ الأرض تركت بأيدي أهلها على الخراج، وأنّ المسلمين يستطيعون شراء الأرض كما حصل في المشرق.

وهذا يذكّر برواية تفيد " أنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلاّ أذعنوا إلى الصلح، ولذلك بقي الروم على أرضهم وأموالهم، يبيعون ويباع منهم"[3]، وبذلك تكون الأرض عامة خراجية.

ولعل ابن حزم (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م) كان أكثر وضوحاً ودلالة حين يقول:" هذا ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة، توجب العلم الضروري، إنّ الأندلس لم تخمّس وتقسم كما فعل رسول الله عليه السلام فيما فتح، ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح، لكن نفذ الحكم فيها "لكل يد ما أخذت"، ووقعت غلبة بعد غلبة، ثمّ دخل البربر (و) الأفارقة فغلبوا على كثير من القرى من دون قسمة. ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن غياض فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عمّا كان بأيديهم، كما ترون الآن من فعل البربر ولا فرق"[4].

لقد دقّق ابن حزم فيما قال، فأوضح أنّه سمع"سماع استفاضة توجب العلم"، ليبين أنه لم تتبع في الأندلس إجراءات الرسول صلى الله عليه وسلم في

---

١. كتاب تذكار بروفنسال٢/٤٠٩.

٢. ن. م. ٢/٤١٠.

٣. الغساني، رحلة الوزير ص١١٣.

٤. ابن حزم، الرد على ابن النغريلة، ص ١٧٦.

أراضـــي خيبر حين اعتبرها غنيمة وخمسها، ولم يتبع ما فعله عمر في اعتبار الأرض فيـــئاً للمـــسلمين، بل تركت الأرض من دون قرار عام بشأنها، فغلب المقاتلـــة على الأراضي وتملكوها وفق مفهوم" لكل يد ما أخذت"، وتكرر ذلك بعدئذ. ويفهم من ذلك أنّ عامة الأراضي تركت لأصحابها على الخراج. وجاء التنظيم النهائي للأرض والخراج زمن عمر بن عبد العزيز.

ويلاحـــظ أيـــضاً أنّ البلديين كانوا يدفعون العشر على أراضيهم، أي أنها كانـــت ملكاً لهم، أمّا الشاميون فلم يكونوا يدفعون شيئاً لأنهم يأخذون أعطياتهم وأرزاقهم كمقاتلة من ثلث الحاصل وهو الخراج[1].

---

١. انظر ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٨٣-٨٤، لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة ١/١٠٦-١٠٧.

المصادر والمراجع

- **ابـــن الأبـــار، محمـــد بـــن عـــبدالله بـــن أبـــي بكـــر القـــضاعي** (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م).

- التكملة لكتاب الصلة، جزءان، نشر عزت العطار، القاهرة،١٩٩٥-١٩٥٦م.

- كـــتاب الحلة السيراء، جزءان، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.

- **حـــتاملة، محمـــد عبده**- إيبريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- **ابـــن حـــزم الأندلسي** (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م)- الردّ على ابن النغريلة الـــيهودي، تحقـــيق إحـــسان عـــباس، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

- **حـــسن حسني عبد الوهاب**- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج١،مكتبة المنار، تونس، ١٩٧٢م.

- **حسين مؤنس**- فجر الأندلس، ط٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- **الحميـــري، أبـــو عـــبدالله محمـــد بـــن عـــبدالله بـــن عبد المنعم** (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م).

- الـــروض المعطـــار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

- صـــفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشرة ليفي بروفنسال، القاهرة-ليدن،١٩٣٨م.

- **الـــدوري، عـــبد العزيز**- نظام الضرائب في صدر الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج٢م٤٩، دمشق ١٩٧٤م.

- **الرقيق القيرواني**- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، ١٩٦٨م.

- **الزركلي، خير الدين**- الأعلام،(٨) أجزاء، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨٠م.

- **شـــالميطا،بدرو**- صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي في الحضارة العـــربية الإســـلامية في الأندلس، ج٢ص١٠٤١وما بعدها، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،١٩٩٨م.

- **الـــضبي، أحمـــد بن يحيى بن أحمد**- (ت٥٩٩هـــ١٢٠٢)- بغية الملـــتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق كوديرا، مجريط، ١٨٨٤م.

- **الطالبي، محمد**- الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، نقلة إلى العربية المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٥م.

- **الطبـــري، محمـــد بـــن جريـــر**(ت٣١٠هـــ/٩٢٢م)-تاريخ الرسل والملـــوك،(١٠) أجـــزاء، تحقـــيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

- **ابـــن عـــبد الحكـــم، أبو محمد عبدالله**(ت٢١٤هـــ/٨٢٩م)-سيرة عمـــر بـــن عـــبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، دار العلم للملايين، بيروت،١٣٨٧هـــ/١٩٦٥م.

- **ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله**(ت٢٥٧هـــ/٨٧١م)-فتوح مصر وأخبارها، بريل-ليدن،١٩٢٠م، أوفست مكتبة المثنى، بغداد.

- **عبد الواحد ذنون طه**- الفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقية والأندلس، بغداد، ١٩٨٢م.

- **أبـــو عبيد، القاسم بن سلام** (ت٢٢٤هـــ/٨٣٩م)- الأموال، تحقيق محمـــد خلـــيل هراس، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،١٩٨١م.

- **ابـــن عـــذاري، أبو العباس أحمد بن محمد**(ت٦٩٥هـــ/١٢٩٥م)- البـــيان المغـــرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج٢، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ط٢، ج١ط٣، دار الثقافة، بيروت،١٩٨٣م.

- **العـــذري- أحمـــد بـــن عمر**(ت٤٧٨هـــ/١٠٨٥م)- نصوص من الأنـــدلس مـــن كـــتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥م.

- **أبــو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني**(ت٣٣٣هـ/٩٤٤م)- طــبقات علمــاء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافعي، تونس، ١٩٦٨م.

- **الغساني، محمد بن عبد الوهاب**- رحلة الوزير في افتكاك الأسير (١٦٩٠-١٦٩١)، تحرير نوري الجراح، بيروت، ٢٠٠٢م.

- **غيداء خزنة كاتبي**، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الــثالث الهجــري، (الممارســات والنظرية) ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١م.

- **ابــن القوطية القرطبي، أبو بكر محمد بن عمر**(ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)- تــاريخ افتــتاح الأنــدلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م، مراجعة عمر فاروق الطباع، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

- **ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك**(ت بعد ٥٧٣هـ/١١٧٧م)- تــاريخ الأنــدلس، تحقــيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد،١٩٧٢م.

- **لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد**(ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)- الإحاطــة بأخــبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، ج١ط٢، القاهرة،١٩٧٣م.

- **المالكــي، أبــو بكر عبدالله بن محمد**(ت بعد٤٥٣هـ/١٠٦١م)- ريــاض النفوس،(٣)أجزاء، تحقيق بشير البكّوش ومحمد العروسي المطــوي، دار الغــرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ط٢، ١٩٩٤م.

- **المقـــري، أحمـــد بن محمد التلمساني**(ت١٠٤١هـــ/١٦٣١م)-نفح الطـــيب، ٨ج، تحقـــيق إحـــسان عـــباس، دار صـــادر، بيروت، ١٣٨٨هـــ/١٩٦٨م.
- **مؤلـــف مجهـــول**- أخـــبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهـــم الله والحروب الواقعة بينهم، محمد أسامة الكرم، دار أسامة الكرم، دار أسامة، دمشق(د.ت)، صورة عن طبعة مجريط ١٨٦٧م.
- **يحيى بن آدم، أبو زكريا يحيى بن سليمان**(٢٠٣هـــ/٨١٨م)-كتاب الخـــراج صححه وشرطه أحمد محمد شاكر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م.
- **أبـــو يوســـف، يعقـــوب بـــن إبراهيم**(ت١٨٢هـــ/٧٩٨م)- كتاب الخـــراج، تحقـــيق إحـــسان عباس، دار الشروق بيروت/القاهرة، ١٤٠٥هـــ/١٩٨٥م.

*Collins Roger, the Arab conquest of Spain, 710 -797, Blackwell,Oxford 1989.

*Collins, Early Medieval Spain, Unity in Diversity 400-1000, New York 1985,.

* Etudes dOrientalisme, dediee a la Memoire de Levi-provencale II Paris 1962.

*Glick, Thomas F .From Muslim Fortress to Christian Castle, Manchester university press,Manchester 1995.

* Levi- provencal,e., un Nouveau recit de la Conquetede nord par les Arabes,Arabica i 1945, p.14 et seq.

* Etudes dOrientalisme, dediee a la Memoire de Levi-provencale II Paris 1962.

*Glick, Thomas F .From Muslim Fortress to Christian Castle, Manchester university press,Manchester 1995.

* Levi- provencal,e., un Nouveau recit de la Conquetede nord par les Arabes,Arabica i 1945, p.14 et seq.